ميامر
القديس مار إسحق
السريانى

المخطوطة ٢٦ ميامر
مكتبة دير القديس أنبا مقار

(نسخة منقحة)
إعداد وترجمة رهبان الدير

الجزء الثالث

Αγια Παρασκευη
القديسة باراسكيفي
القديس
يونا التلعيدي
Πρόσωπον μοναχικόν
Πικολάου
Δοξα σοι φιλανθρωπε

الميمر الأول

فى محبة الله، والزهد والراحة فى الله

١- النفس المحبة لله تجد راحتها فيه وحده فقط. بادر إلى حلّ كل رباط خارجى من ذاتك، حينئذ تقدر أن تربط قلبك بالله؛ لأن إله انفصال من الهيولى (أى المادة) يسبق الاتصال بالله.

٢- الخبز يُعطَى للطفل بعد الفطام، والإنسان الذى يريد أن يحظى بالإلهيات ينبغى له أولاً أن يتغرّب عن العالم، كما يتغرّب الطفل عن ثديّ أمه.

٣- الأعمال الجسدانية تتقدم الفلاحة النفسانية كتقدم التراب على النفس المنفوخة[1] فى آدم. والذى ليس له أعمال جسدانية لا يقدر أن يقتنى العمل النفسانى، لأن الثانى يتولّد من الأول كما تتولد السنبلة من الحبة المجردة. ومن ليس له العمل النفسانى قد عَدِم المواهب الروحانية. لأن الأتعاب والأحزان الزمنية من أجل الحق لا تقاس بالنعيم المعدّ للعاملين بالفضيلة[2].

---

(١) (تك ٢: ٧) (٢) (رو ٨: ١٨)

كما أن أغمار السرور تتبع باذري بذار الدموع. هكذا الفرح يتبع الأتعاب والأعمال من أجل الله. والخبز الذي من العرق يلذ للفلاح، وهكذا الأعمال التي من أجل البر تبهج القلب الذي قد قبل معرفة المسيح.

٤- اصبر على المحقرة والانتضاع بفكر وقصد الفضيلة لكي تفوز بدالة القلب عند الله، كل كلمة صعبة قاسية يحتملها الإنسان بمعرفة بدون ذنب (أساء به إلى مخاطبه)، فإنه في ذلك الوقت يقبل على رأسه إكليل شوك من أجل المسيح. وطوباه لأنه في وقت لا يشعر به يتوج بتاج لا يلم به فساد.

٥- الهارب من التشرف (أي التكريم) بمعرفة، هنا قد أحس في ذاته برجاء العالم المزمع. من قال إنه قد ترك العالم، وهو مع ذلك ينازع الناس في شيء ما، لئلا يعوزه شيء من راحته، فهو ضرير بالكلية، لأنه قد ترك الجسم كله بإرادته، بينما هو يخاصم وينافض من أجل عضو واحد من أعضائه.

٦- والهارب من الراحة الحاضرة، هنا قد لاحظ

---

(١) (مز ١٢٦: ٥)

عقله العالم المزمع . أما المرتبط بحب القنية فهو عبد للآلام . ولا تظن أن اقتناء الذهب والفضة هو فقط حب القنية ، بل وكل ما تعلقت إرادتك بشهوته . ولا تمدح الذى يتعب بجسده بينما هو يخل ويطمح بحواسه ، أى السمع وانفتاح الفم وعدم انضباط اللسان ولهموج العينين .

٧- إذا وضعت على نفسك أن تتدبر بأفعال الرحمة ، فعوّدها أن لا تلتمس العدل فى أمور أخرى . لئلا تكون بمنزلة من يعمل بيد واحدة ويفرق بالأخرى ، لأنك أنت مضطر هناك إلى الشفقة ، وأما هنا فإلى سعة القلب . واعلم أن الصفح عن ذنوب المذنبين إلينا ليس هو عمل العدل ، حينئذ ستعاين سلاماً يسرى فى فكرك من كل ناحية . أى أنك إذا كنت تتدبر فى طريقك فوق الواجب والعدل . حينئذ ستقترن بالحرية فى كل أمرٍ .

٨- قال أحد القديسين فى هذا المعنى : " إن الرحيم إن لم يكن عادلاً فهو أعمى " . أى أنه ينبغى له أن يمنح الآخرين مما تعب فيه بنفسه واكتسبه بالعدل لا مما اقتناه بتوسّط الكذب والجور والتحايل . وقال أيضاً فى موضع آخر : "إن كنت

تؤثر أن تزرع فى (حقل) المساكين فازرع مما يخصك ؛ لأنك إن زرعتَ من بذار الآخرين ، فاعلم أن ذلك أمرٌ من الزوان » .

٩- وأنا أقول إنه إن لم يرتفع الرحوم فوق العدل فليس برحيم . أعنى أنه لا يعطى الناس مما يخصه فقط ، بل ويكون ذلك بفرح واغتباط ، صابراً على ظلم قوم ثم محسناً إليهم . فإذا ما غلبتَ العدل بالرحمة ، حينئذ تتكل ، لا بأكاليل أبرار الشريعة (أى الناموس) ، بل بإكليل الكاملين فى الإنجيل . لأن إعطاء المرء للمساكين مما يخصه و إلباسه للعارى ومحبته للقريب كذاته والا يظلم ولا يكذب ، أمور قد أتى بها الناموس القديم . أما كمال بشارة التجسد فأمر قائلاً : « الآخذ مالك لا تلتمسه منه ، وأعطِ كل من سألك » . وليس ينبغى لك فقط الصبر على الجور من جهة المقتنيات وبقية الأمور التى تأتى عليك من الخارج ، بل وأن تبذل النفس من أجل الأخ ، لأن هذا هو الرحيم ، وهو ليس الذى يرحم أخاه بما يعطيه له فقط ، بل هو من رأى أخاه محزوناً أو سمع أنه كذلك ، فالتهب قلبه ، هذا هو رحيم بالحقيقة ، ومثل هذا أيضاً من لطمه أخوه فلم يُقدم على إجابته بكلمة ، ولم يحزنه بشئ .

١٠- أكرم عمل السهر لتجد عزاءً قريباً في نفسك. ثابر على القراءة في الهدوء لكي يُرشد عقلك دائماً في أعاجيب الله. أحبب المسكنة بتجلد لتجمع فكرك من التشتت. امقت الاتساع لكي تصان أفكارك من الاضطراب. انقبض (أي ابتعد) من المحادثة مع كثيرين واحملهم تدبيرك وسيرتك لكي تخلص نفسك من تشتت هدوئها الداخلي.

١١- حِبّ العفة حتى لا تخزى في وقت صلاتك قدام (المسيح) واضع جهادك. اقتنِ نقاوة في تدبيرك لكي تنير نفسك في وقت صلاتك، وبذكر الموت يشتعل السرور في فكرك. تحفّظ من الصغيرات لئلا تقع في الكبيرات. لا تكسل من الأعمال حتى لا تخزى إذا ما مثلت وسط رفقائك. لا تكن بغير زاد لئلا يتركك خلاّنك وحدك وسط الطريق ويمضوا. اصنع عملك بمعرفة وتمييز لئلا تتعطل وتتخلف عن سيرك كله. اقتنِ حرية في تدبيرك لتعتق من الخياط (أي القلق). لا تربط حريتك بأسباب الراحة لئلا تصير عبداً للعبيد. أحبب الثياب الزرية الحقيرة لكسائك لكي تنبذ الأفكار التي تعظم القلب بالتيه والصلف؛ لأن محب الثياب اللامعة لا يقدر أن يقتني أفكاراً متضعة؛ فالقلب

بالضرورة يتشكل من الداخل حسب الأشكال التى من خارج .

١٢- من ذا الذى أحب الهذيان (أى الثرثرة) فقدِر أن يكون ذا فكر عفيف ؟ من ذا الذى يتحايل أن يتصيد التكريم من الناس ويمكنه أن يقتنى أفكاراً منسحقة ؟ من ذا الذى يكون فاسقاً ومنحل الأعضاء ويمكنه أن يكون ظاهر العقل متضع القلب ؟ لأنه متى انجذب العقل مع الحواس ، أكل معها غذاء الوحوش (أى الأوجاع) . أما إذا انجذبت الحواس مع العقل فهى تتناول معه طعام الملائكة .

١٣- المجد الفارغ هو خادم الزنا إذا ما تدبّر (الراهب) بالعظمة ، أما الاتضاع فيتبعه النسك والانقباض . المجد الفارغ يتبعه الانفساح (أى السعة) والتيه (أى العُجب) ، أما الاتضاع الذى من الانقباض الدائم فيقود إلى التأوريات ويسلّح القلب بالعفة . المجد الفارغ ، من مداومة طياشة الفكر بسبب مصادفة الأمور ، يكنز ذخائر سمجة ويدنس القلب ، فينظر طبائع الأمور بنظر فاسق ، ويلهب العقل بأفكار نجسة . أما الاتضاع فبتأوريتها (أى بتأمل طبائع الأمور) ينقبض انقباضاً روحانياً ، ويحرك مقتنيه

على التسبيح والتمجيد.

١٤- لا تقايس صانعي الآيات والمعجزات والقوات في العالم بالساكتين بمعرفة في الهدوء. أحبب بطالة السكوت أكثر من إشباع جياع العالم، وردّ أمم كثيرة إلى السجود لله تعالى. لأن الأفضل لك أن تفك ذاتك من ربائط الخطية من أن تعتق عبيداً من عبوديتهم، ومن سجن أسرهم. اصطلح أنت مع ذاتك بانفاق الثالوث الذي فيك، أعني الجسد والنفس والروح، أكثر من أن تصالح المتغاضبين بتعليمك. لأن الثاؤلوغس يقول: "حسن هو الكلام عن (أمور) الله تعالى من أجل الله، وأجلّ من هذا أن يتطهّر الإنسان ذاته لله سبحانه. الأصلح لك أن تكون قليل الكلام. مع أنك عالم ومعلّم وذو معرفة من تجربة الأشياء بداخلك، من أن تفيض أنهار تعاليم مع حدّة عقل من اكتساب السماع (وقراءة) الأسطر. الملائم لك أن تهتم بإقامة مسوتة نفسك من الآلام إلى الحظوة بالله، أكثر من إحيائك أمواتاً.

١٥- كثيرون صنعوا قوات، وأقاموا أمواتاً، وتعبوا في ردّ ضالين وعملوا أعاجيبَ عظاماً. وكثيرون اهتدوا على أيديهم إلى معرفة الله، وبعد هذا، هؤلاء الذين

أحيوا آخرين، سقطوا فى آلام نجسة مرذولة وأماتوا نفوسهم، وصاروا شكاً للذين آمنوا على أيديهم بما ظهر من انقلاب عملهم أخيراً، لأنهم كانوا مرضى النفوس. ولم يهتموا بإيراد الصحة عليها، بل انصبّوا إلى بحر هذا العالم رغبة فى أن يعالجوا نفوس آخرين، وهم بعدُ مرضى، فأهلكوا ذواتهم وخابوا من رجاء الله تعالى. كما ذكرتُ. لأن ضعف الحواس لا يقدر على ملاقاة لهيب الأمور التى من شأنها أن تزيد من ضغط الآلام على الذين هم بعدُ محتاجون إلى التحفظ والاحتراس، أعنى أن لا ينظروا نساء، ولا يلتمسوا نياحاً، ولا يقتنوا مالاً أو أثاثاً، ولا يترأسوا آخرين، ولا يترفعوا على أقوام آخرين.

١٦- الأوفق لك أن يُظن بك أنك من الجهّال لقصور معرفتك عن الجواب والاحتجاج، لا أن يُعتقد فيك أنك من الحكماء لأجل التوقح. كن فقيراً من أجل الاتضاع ولا تكن موسراً بسبب التوقح. وبخ المجادلين بقوة فضيلتك لا بالكلام، والطامحين بحواسهم بهدوء شفتيك وعفة عينيك المنقبضتين إليك بهدوء. خجّل الفسقة بعفة سيرك وليس بالكلام.

١٧- احسبْ نفسك غريباً كل أيام حياتك وحيثما

توجهتَ ، ليمكنك أن تتخلص من الخسارة التى تولّد من الدالة . تصوّر ذاتك فى كل وقت أنك لاتعرف شيئاً ، ليمكنك أن تنجو من الملامة الناجمة فيك من الظن أنك كفوء لتقويم آخرين . بارك دائماً بفمك ، فإنك لاتُذمّ من أحد ، لأن المذمة تولّد مذمة ، والبركة تُحدث بركة.

١٨- إعتقد أنك مفتقر فى كل أمر إلى التعليم فستكون حكيماً مدة حياتك كلها . لاتسلّم لأحد شيئاً لم تحكمه . ولاتدبيراً لم تصل إليه بعدُ ، حتى لاتخزى فى ذاتك ويتبين كذبك من قياس سيرتك . إذا ما فاوضت انساناً فى أمر من الأمور النافعة أو فى أشياء واجبة ، فتحدّث معه كمتعلم لا بتعظّم وسلطة وتوقح . وبادر بالحكم على ذاتك ، وإقامة البرهان على أنك أدنى منه ، وذلك لكى ترى السامعين ترتيب الاتضاع ، وتحثهم بزيادة على استماع أقوالك والمسارعة إلى العمل . وتكون مكرّماً فى عيونهم . وإن أمكنك تكلم معهم فى مثل هذه الأمور ببكاء ودموع لتنفع ذاتك وسامعيك ، وتشملك نعمة الله تعالى .

١٩- إن أدركت تفضل (نعمة) الله جلّ وعزّ . وأُهّلتَ للتنعّم بتصوّر برايا الله المنظورة ، الذى

هو أول عمل المعرفة، فأعدّ نفسك وسلّحها مقابل روح التجديف . ولا تمكث فى هذه البلدة بغير سلاح، لئلا يميتك سريعاً المتربصون المضلون إياك . وليكن سلاحك الدموع والصوم مع السجود المتواصل . وتحفظ من قراءة الكتب التى تفرز تعاليم وآراء المخالفين . فإياك الدنو منها ، لأن هذا الأمر هو الذى ينهض (ويسلّح) بالأكثر روح التجديف عليك . إذا ملأت بطنك فلا تتوقح وتقدم على شرح أو فحص شئ من الإلهيات ، لئلا تندم فيما بعد . افهم ما أقوله لك : إن علم أسرار الله ، سبحانه ، لا توجد فى جوف ملآن .

٢٠- اقرأ دائماً من غير شبع فى كتب آباء نيّرين التى تتكلم عن سياسة الله ، سبحانه ، والتى تظهر اختلاف أعماله فى خليقته ومعرفة طبائع العالم . لتسوّى منها عقلك ، وتقتنى حركات نيّرة مضيئة من دقة معانيها ، ويسير فكرك بطهارة إلى التمعّن فى خلائق الله جلّ اسمه ، ومعرفة قصد خلقة هذا العالم حسب حكمة فكر خالق الطبائع .

٢١- اقرأ أيضاً فى الجديدة والعتيقة ، العهدين اللذين وضعهما الله تعالى لمعرفة المسكونة كلها ، لكى

تتزود من قوة عنايته فى كل الأجيال، ويَلج (أى يدخل) قلبك إلى عجائب الله، سبحانه، لأن هذه القراءة تلائم قصدك.

٢٢- لتكن قراءتك فى هدوء من الكل، واعتق ذاتك من فرط الاهتمام بالجسد ومن اضطراب الأمور، حتى تتذوق فى نفسك مذاقة لذيذة بأفهام حلوة تفوق الحواس، وتحس بها نفسك بمداومتها بهذه الأفهام.

٢٣- لا تكون أقوال المحنكين بالتجربة (أى ذوى الخبرة) عندك بمنزلة أقوال الأفاكين بانعى الكلام الذين يصرّفون الأقوال الإلهية إلى غير وجهها، لئلا تمكث فى الظلام إلى نهاية حياتك، وتُحرم من فائدتها، وتنزعج فى وقت القتال انزعاجَ مضطربٍ، وتقع فى هوّةٍ وحفرة بحجة أنه وجه حق.

٢٤- لتكن لك هذه العلامة فى الأمور التى قربت من الدخول فيها داخل ذلك البلد: إذا ابتدأت النعمة أن تفتح عينيك لتحس بجوّ إدراك الأمور إدراكاً حقيقياً، حينئذ تبدأ عيناك فى سكب الدموع الغزيرة حتى أنها على أكثر الأمر تبلّ الخدين بكثرتها. وفى الوقت تسكن حرب الحواس، وتنقبض

بلذة داخل منك . إن علمك إنسان ما يضاد هذه الأمور فلا تثق بقوله ، فغير الدموع لا تطلب من الجسد دليلاً واضحاً على الإحساس بالحق بعلامة ظاهرة إلا الهدوء فقط من انفعال الأعضاء . أى أنه إذا ارتفع العقل عن الكائنات ، عند ذلك فالجسد أيضاً تزول منه الدموع وكل حركة وإحساس ما خلا حياته الطبيعية . لأن تلك المعرفة لا تتنازل أن تأخذ معها مشاركة ولا تستعير - بنظر العقل - شيئاً من أشكال هذا العالم المحسوس . « إن كان بالجسد أو بغير جسد لا أعلم ، الله هو العارف » . وإنه سمع « كلاماً لا ينطق به » . كل ما يُسمع بالآذان يمكن أن يُنطق به ، فهو لم يسمع بصوت محسوس ولم ينظر بأشكال متجسمة بالحس ، بل بحركة الفكر بانخطافه من الجسد ، وليس بمشاركة الإرادة . فالشئ الذى لم تنظر عين مثله ، ولا سمعت أذن قياسه ، ولا تخيّل القلب شبه منظره لكى يتصوّر فيه بتذكار أنواع معرفته ، هذا الشئ هو الذى أعده الله لأنقياء القلوب بمستوهم من العالم . فهو ليس منظراً جسدانياً تقبل معرفة خصائصه بأعين جسدانية ، ولا خيالات مستعارة تصور فى الفكر ، بل بسهوة (أى بدهش) تأثرية المعقولات بالتصديق المحق ، أمراً يفوق القياسات

والتقسيمات المعروفة التي توضح أيقونات (مركّبة) من العناصر.

٢٥- حسب قوة نظرك إشخص قبالة قرص الشمس لكي تتنعم بشعاعات إشراقه فقط، وليس لتتفحص سرعة مسار فلكه، لئلا يسلب منك النظر القياسي (أي العادي المحدود). فإذا ما وجدتَ عسلاً كُلْ منه بمقدار معتدل، لئلا تتقيأ عند الامتلاء.

٢٦- إن لطبيعة النفس خفيفةً (لا وزن لها)، فربما تشتاق أن ترتقي وتعلم ما فوق لطبيعتها. والدليل على ذلك أنها قد تدرك أمراً ما من قراءة الكتب ومن تصور الأمور. فإذا ما قايست ما قد وصلت إليه من معرفتها بما قد أدركته (بالفعل)، فإنها توجد ناقصة وحقيرة بحسب مقدار تدبيرها، حتى أن الخوف والوجع يُلمّان بأفكارها، فتحرص على الرجوع إلى ورائها من الخوف، إذ هي بمنزلة متوقحةٍ على أمورٍ نورانية تفوقها، ويقمعها الجبن لأجل مهابة تلك الأمور. ويشير الإفراز على عقل النفس بالصمت وترك التوقح، وألا تطلب ما فوقها ولا تتفحص عن الموجودات التي هي أعلى منها، لئلا تهلك.

٢٧- إذا ما أُنعم عليك بالمقدرة على الإدراك والتصوّر، فتصوّر ولا تتوقّع على الأسرار، بل اسجد ومجّد واشكر بسكوت غير المدرك؛ لأنه أظهر لك ما يفوق مقدارك. ولا تتصعب (أى لا تتعصّب؟) فى بقية أعماله. لأنه كما أنه ليس بمحمود أكل الكثير من العسل، هكذا أيضاً ليس من الصواب الفحص عن الأقوال العالية الشريفة، لئلا إذا أردنا أن ننظر (أى نتأمل) لمدة طويلة ولم نصل بعد إلى قرب إدراكها. لأجل خشونة الطريق، تضعف قوة الصلاة الناظرة وتتأذى. لأنه ربما شوهدت الخيالات بدلاً من الحق. فإذا ضجر العقل من البحث ينسى قصده (أى هدفه). فقد أحسن إذاً سليمان فى قوله: «إن الإنسان الذى ليس بصبور يشبه مدينة لا صورة لها».

٢٨- ما هى الضرورة التى تلجئنا أن نجول السماء والأرض لنبحث عن الله، وأن نطوف بعقلنا وراءه فى الأماكن؟ لمهِّر نفسك، أيها الإنسان، وأزِلْ عنك ذكر اهتمام الأمور الخارجة عن الطبيعة، وهذيذ التذكارات البرانية، وعلق ستر العفة والإتضاع على باب حركات ذهنك، فإنك بتوسط هؤلاء، تجد الله داخلك. والدليل على ذلك أن الأسرار تنكشف

للمتواضعين .

٢٩- إن كنتَ قد أعطيتَ نفسك للصلاة المطهّرة للعقل ، ولمداومة سهر الليالى لتفتنى فكراً نيّراً ، فابعد ذاتك عن نظر العالم ، واقطع مفاوضة المحادثات. ولا تستجز إحضار الأصدقاء إلى قلايتك ، ولا ذوى الألفة. ولا بقصد الفضيلة أيضاً ، بل المماثلين إياك والذين يشاركونك فى الطريق والأغراض والفهم . ومع هذا احذر من تشويش المفاوضة النفسانية التى من شأنها أن تتحرك كرهاً فى الخفاء دون أن نشاء نحن. ومن بعد انقضاء المحادثة البرانية ، اقرن صلاتك بالفضائل والصدقة لتنظر نفسُكَ شعاعَ الحق. لأنه بمقدار ما يهدأ القلب من الأمور والتذكارات التى من خارج ، يقبل العقل الدهش من (تصور معانى) الأقوال الإلهية . فمن شأن النفس أن تستبدل (بسهولة) محادثة بمحادثة ، إذا ما اجتهدنا أن نظهر اهتماماً يسيراً (وصبراً) . فلكى تستبدل محادثة بأخرى (أى تنتقل من الأحاديث النفسانية إلى الإلهية) ، اعكف على قراءة الكتب التى تُظهر لك دقة طرق التدبير والتاؤريا. وعلى فهم سير وتدبير القديسين ، وإن لم تحس فى البداية بحلاوتها بسبب الأفعال والتكدر التى تكون من التذكارات القريبة العهد .

٣٠- وإذا ما نهضتَ إلى الصلاة والقانون، فعوض الهذيذ بالأمور العالمية، يرتسم في فكرك الهذيذ الذي من الكتب، وبهذا الهذيذ يُمحى من نفسك ذكر الأشياء التي نظرتها وسمعتها من قبل. ويبتدئ بعد ذلك عقلك بالطهارة. وهذا هو معنى المكتوب: «إن النفس تُعان من القراءة إذا ما مثلت في الصلاة». وأيضاً: «نستنير في الصلاة من القراءة». أي أنه عوض الطياشة في الأمور الخارجية تزوّد القراءة النفس عادة لمختلف أنواع الصلاة، هي أفهام حقيقية تتصور بالفكر من التذكارات المدهشة لما قرأته. وكم من وقت يصمت (الفكر) بالذهول من الصلاة، وتقيمه تلك القوة التي من تأثيرية الكتب بغير حركة! وفي هذه الأوقات لها عادة أن تقطع حتى الصلاة بسبب الحلاوة التي تكلمت عنها، وتُلقي على القلب هدوءاً وسكوناً، وتُسكت حركات العقل بتخلف وانحلال أعضاء النفس والجسد أيضاً. ويعرف ما أقوله أولئك الذين أخذوا تجربة (أي اختبروا) هذا الأمر في أنفسهم، وحصلوا داخل هذه الأسرار، وليس من تعليم آخرين ولا اختطافاً من الأسطر التي من شأنها في أوقات كثيرة أن تكذب الحق.

٣١- ما أقبح بفاسقي الأجسام وذوي الشره ومحبي البطن أن يفحصوا أو ينظروا في الأمور الروحية مثلما هو قبيح "وسمج" بالزانية أن تتحدث عن العفة. الجسد الضعيف جداً يأبى السمين من الطعام، والنية تنفر وتلوى عنه، والعقل المملوء من العالم ومحادثاته والمضطرب بأموره، ما يقدر أن يدنو من الفحص عن الأمور الإلهية. النار لا تشتعل في حطب رطب، والحرارة الإلهية لا تشتعل في قلب يود الراحة والحرية. الزانية لا تصرف محبتها إلى شخص واحد فقط، والنفس المرتبطة بأمور كثيرة لا تدوم أمانتها للتعاليم الإلهية. كما أن الذي لم يعاين الشمس بعينيه لا يقدر أن يصف لإنسان ما هو ضوؤها، ومن السماع وحده لا يقدر أن يتخيل نورها في فكره، ولا يستطيع أن يأخذ لها شبهاً في نفسه لكي يحس ببهاء شعاعها. هكذا الحال مع الذين لم يذوقوا في نفوسهم حلاوة الأعمال الروحانية، ولا استحقوا من سيرة تدبيرهم أن يقتنوا خبرة الأسرار الروحية، بل اتخذوا في فكرهم تشبيهات للحق من تعليم الناس ومن الدربة في قراءة الكتب. هؤلاء لا يمكن أن يقتنوا في نفوسهم اقتناعاً حقيقياً وإدراكاً صحيحاً لحقيقة الشيء.

٢٢- إن كان لك شئ يفضل عما تحتاج إليه في يومك أعطِهِ للمساكين، وهلم بدالة قدّم صلواتك، أي تحدث مع الله تعالى كما يتحدث الابن مع أبيه، لأنه ليس شئ يقدر هكذا أن يقرّب القلب إلى الله مثل الرحمة، ولا أمر من الأمور يصنع هدوءاً في العقل مثل المسكنة الاختيارية.

٢٣- الأفضل لك أن يدعوك الأكثرون عاصياً لأجل بساطة يدك في العطاء بغرض مخافة الله وليس لطلب مدحه، ولا يدعونك حكيماً رزين العقل لأجل عدم اضطرابك مع كل أحد (أي بالشحّ في العطاء). إن مدّ إليك فارسٌ يده طالباً منك صدقة، فلا تردّه، لأنه في ذلك الوقت يكون محتاجاً بالفعل كواحد من الضعفاء. وإذا أعطيته فليكن ذلك بطيب نفس وانشراح وجه، وأعطِهِ أكثر مما طلب، لأنه يقول: «أرسِلْ خبزك على وجه المياه وستحظى بالمجازاة بعد زمان كثير». لا تفرّق بين غنى وفقير، ولا تؤثر أن يعرف المستحق من غير المستحق، بل ليكن الناس كلهم بالسواء عندك في عمل الخير. لأنك بهذا الأسلوب تقدر أن تجتذب إلى الخير حتى الذين ليسوا بمستحقين، لأن النفس تنجذب سريعاً من الجسدانيات إلى مخافة الله

تعالى. والدليل على ذلك أن الرب، تقدس اسمه، شارك في مواهبه عشّارين وزواني، ولم يفرز الذين ليسوا بمستحقين حتى يجتذب الكل بهذه الطريقة إلى مراقبة الله تعالى، ولكي بالشركة في الجسدانيات يقربهم للشركة في الروحانيات. ولهذه العلة ساوِ أنت بين جميع الناس في الخير والكرامة. فلا توبخ إنساناً قط. واحرص أن يكون الناس كلهم عندك بالسواء، يهودياً كان أو قاتولاً أو كافراً، لاسيما أنه أخوك في الطبيعة. وإنما قد ضلّ من الحق لعدم العلم.

٣٤- إذا صنعتَ مع إنسانٍ ما جميلاً فلا تتوقع منه المكافأة قريباً، فسيجازيك الله، سبحانه، عن الأمرين كليهما. وإن أمكنك فاصنع ذلك ليس من أجل المكافأة المزمعة بل لكي تتفاضل بزيادة في محبة الله. لأن درجة الحب غويصه هي وأفضل جداً من العمل لأجل المكافأة، والحب يتفوق بسرّه أكثر من فعل الخير كتفوق النفس على الجسد.

٣٥- إذا وضعتَ في نفسك أن تعيش بالمسكنة فستنعتق، بتفضل الله تعالى، من الهموم وتصير بمسكنتك أعلى من العالم. فإياك أن تحب الغنى من أجل محبة المساكين، لئلا تكون صدقتك من هذا

الوجه ، فتلقى نفسك فى خباط (أى اضطراب) إذ تأخذ من واحدٍ وتعطى آخر ، وتبيد كرامتك بخضوع الطلب من الناس ، وتخيب من حسبك وتعدم حرية فكرك باهتمامك بالأمور العالمية ، لأن منزلتك هى أعلى من منازل المحسنين . وأنا أسألك ألا تتخدع ، فإن الرحمة مشابهة لتربية الطفل ، وأما السكوت فهو غاية الكمال . فإن كانت لك مقتنيات فرِّقها مرة واحدة ، وإن لم يكن لك فلا تؤثر أن يكون لك . أَزِلْ من قلبك كل وسائل التنعم والأشياء الزائدة . لأن هذا يقودك إلى النسك وإن لم تشأ . لأن العوز فى كل شئ يعلم الإنسان الإمساك ، لأننا إذا تمكنا من (اقتناء) الأشياء ، وتوسعنا فى ذلك ، فلا نقدر على إمساك ذواتنا .

٢٦- الظافرون فى الحروب الخارجية إنما يتشجعون (تجاه) الخوف الذى من الداخل . ولا شئ يمكن أن يجتذبهم كرهاً وعن اضطرار إذا ما ضُيق عليهم بالقتال الذى من قدام ومن وراء . وأشير بالقتال إلى الحرب التى يثيرها الإنسان على نفسه بجهالة من خلال الحواس ومن التوانى : أى من الأخذ والعطاء والنظر والسمع والكلام وشره البطن ، ومن كثرة الأعمال المتزايدة التى يضعها على نفسه ، تلك الأمور التى

تجلب على النفس العمى. ذلك لأن النفس، بسبب الاضطراب الذى يلاقيها من الخارج، لا تقدر أن تتأمل ذاتها فى الحروب المتحركة عليها خفية. أما فى السكوت والهدوء، فهى تقدر على الفتك بما يتحرك ضدها من الداخل. لأن الإنسان إذا ما أغلق أبواب المدينة، أى الحواس، عندئذ يحارب فى الداخل وجهاً لمقابل وجه، دون أن يخاف من الكمين الذى من وراء المدينة.

٢٧- مغبوط هو الإنسان الذى يعرف هذه الأمور ويلازم السكوت والهدوء، ولا يكثر لنفسه الأعمال. بل ينقل كل الأعمال الجسدانية إلى عمل الصلاة. وإن أمكنه لا يشارك مع عمل الله - الذى هو الصلاة وقراءة الكتب وخدمة المزامير - شيئاً آخر من الأشغال. واثقاً أنه بمقدار ما يعمل مع الله عزّ وجلّ، ويصرف كل اهتمامه إليه ليلاً ونهاراً، لن يعوزه شئ مما تدعو إليه الحاجة الضرورية، لأنه من أجل الله قد امتنع من العمل. وإن كان إنسان لا يقدر أن يحفظ السكوت دون عمل اليد، ولا أن يثبت فى القلاية، فليعمل بيده ويستعِنْ به ولا يُفرِط فيه رغبة فى الربح والكسب. لأن هذه وصية ثانية هى، وليست لازمة، فعمل اليدين موضوع برسم الضعفاء، أما الكاملون فإن ذلك مزعج لهم. لأن عمل اليدين يعتبرونه معوقاً ومعطلاً

لتذكار الله . والآباء قد رسموا العمل للمساكين والفجورين، لا على أنه أمر ضروري .

٣٨- في الوقت الذي يُخشّع الله قلبك من الداخل. ثابر على السجود والمطانيات متوتراً . وإذا ما ابتدأ الشياطين أن يقنعوك أن تشتغل بأمور أخرى ، لا تدع عقلك يهتم بأي شئ . حينئذ انظر وتعجب مما هو عتيد أن يتولد لك منها . لا تعتبر شيئاً من الأعمال أفضل من أن يُلقي الإنسان ذاته قدام صليب المسيح ليلاً ونهاراً ويربط يديه إلى وراء (مثل مذنب) . أتؤثر أن لا تبرد حرارتك وتجف مدامعك؟ كن ملازماً لها . وطوباك ، أيها الإنسان إن اهتممت بالمقولات لك ليلاً ونهاراً ولم تطلب معها شيئاً آخر. عندئذ يشرق النور لك من الداخل كالصبح ، ويلمع برّك سريعاً ، وتصير كالفردوس المزهر وكعين ماء لا ينتقص .

٣٩- تأمل أية خيرات تتولد للإنسان من الجهاد! فما أكثر ما يوجد الإنسان جاثياً على ركبتيه في الصلاة ، ويداه ممدودتان إلى السموات ، وهو شاخص بوجهه إلى صليب المسيح ، وجامع كل حركاته وفكره إلى الله في الصلاة . وبما أنه متوسل إلى الله

(بانسحاق ودموع)، يتفجر فى قلبه ينبوع حلاوة: وتنحلّ أعضاؤه، وتغمض عيناه، ويلفت وجهه إلى الأرض، وتتبدل أفكاره، حتى أنه لا يقدر أن يسجد من الفرح الموجود فى جسده كله.

٤٠ - تأمل، أيها الإنسان، ماذا تقرأ. ألعسلٌ من قراءة الأسطر يعرف الإنسان هذه الأمور؟ أو أن مذاقة العسل تعبر فى فم القارئ من غير عمل؟ لأنك إن لم تجاهد ما تجد، وإن لم تدق الباب دائماً بحرارة وتواصل السهر فلن يُسمع منك. مَن ذا الذى يسمع هذه الأمور فيشتاق إلى البرّ الخارجى؟ غير أنه يوجد من لا يقدر على الصبر فى السكوت والحبس فى القلاية، وهو منحلّ وحواسه سائبة بالخلطة مع كل أحد، ولكن على كل حال إن لم يقدر على إحكام ذلك. لأن وجود الإنسان داخل الباب إنعام من الله. فلا يتخلف عن الطريق الأخرى (أى الشركة) لئلا يعدم طريقى الحياة كليهما.

٤١ - ما لم يمت الإنسان الخارجى من أعمال العالم، لا من الخطية فقط بل ومن كل عمل جسدانى، وما لم يمت الإنسان الداخلى أيضاً من الأفكار والتنكارات الخبيثة وتضعف حركة الجسد الطبيعية حتى أن حلاوة